عود الضمير في القرآن الكريم

أ.د . دريد حسن احمد الصالح

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة السلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فهناك وجوه كثيرة من الاعجاز القرآني يعرفها الباحثون على وجه العموم كالاعجاز في إيجازه، وحقيقته ومجازه، وكنايته، واستعارته، وتقديمه وتأخيره، وغير ذلك . إلا أن هناك وجوهاً أخرى من الاعجاز لاتقل شأناًعن هذه الوجوه قد غفل عنها كثير من الناس، منها الاعجاز في عود الضمير، إذ تفنن الأسلوب القرآني في هذه الظاهرة بشكل ملفت للنظر، والاحتمالات الكثيرة لعود الضمير هو دليل الاعجاز كما صرح بذلك الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة إذ لايحيط بهذا النص باحث، وهو نظير اختلاف المفسرين في وجوه إعراب القرآن، والنص القرآني يحتمل وجوهاً متعددة وهذا هو أحد مكامن الاعجاز، فقد يعود الضمير الى الاقرب، او المتحدث عنه، أو المسكوت عنه، أو يعود الى الواحد وهو يقصد الاثنين وغير ذلك . وتظهر أهمية موضوعنا في أنه أحد الأسباب المهمة لاختلاف المفسرين في عود الضمير، كالخلاف في القراءات، والإعراب، والاشتراك اللفظي، والحقيقة والمجاز.

والضمائر لاتخلو من الابهام والغموض وخصوصاً ضمير الغائب فصاحبه غير معروف لأنه غير حاضر وغير مشاهد فلابد لهذا الضمير من شيء يفسره ويوضح المراد منه، ويسمى هذا المفسر الموضح مرجع الضمير .

كما نحب أن ننبه الى أن اختلاف المفسرين في عود الضمير ليس اختلاف تباين وتضاد وإنما هو أختلاف تنوع وأجتهاد وتوسعة في المعنى في الأعم الأغلب كما هو شأن الخلاف في القراءات القرآنية وقد القينا في

هذا البحث الضوء على هذه المسألة وعززناها بالشواهد القرآنية ووثقناها بالمصادر والمراجع التي لها تعلق بهذا الموضوع، والله المستعان .

من المعلوم في نحو العربية أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور،وكذلك في القرآن الكريم، هذا هو الخط العام في عود الضمير.وفي موضوع ضمير الغائب ذكر الأستاذ عبد الخالق عضيمة هذه القاعدة في مقدمة بحثه فقال: (يعود الضمير على الأقرب ويجوز مع القرينة أن يعود على الأبعد)⁽¹⁾

إلا أن عود الضمير على الأقرب ليس على إطلاقه فهو مشروط بان لا يكون قبله متضايفان، ففي هذه الحالة يكون عود الضمير على المضاف إلا إذا كان المضاف كلمة (كل) او (جميع) والأكثر في هذه الحالة عود الضمير على المضاف إليه⁽٢⁾ .

والشرط المهم لعود الضمير على أقرب مذكور هو أن لا تكون هناك قرينة تصرف الضمير لغيرالأقرب،إذ القرينة عليها يتوقف فهم الكلام وهي المعول عليها ولها الأفضلية ليس في موضوع الضمير فحسب وإنما في كل الأحكام النحوية، والذي يتصفح كتاب (النحو الوافي) للأستاذ عباس حسن يجد مصداق كلا منا هذا ،ويضرب الأستاذ عباس مثالين على القرينه،فقولك: (اعتنيت بغلاف كتاب تخيرته) الضمير يعود على المضاف وهو (غلاف) مراعاة للأكثر بخلاف قولك: (تخيرت غلاف كتاب صفحاته كثيرة) فالقرينة وهي قولك: (صفحاته) تدل على أن الضمير يعود الى الكتاب أعني إلى المضاف إليه⁽٣⁾ .

⁽١⁾ دراسات لاسلوب القران الكريم لمحمد عبد الخالق عضيمة ٢٣/٨

⁽٢⁾ النحو الوافي لعباس حسن ٢٥٦/١

⁽٣⁾ ينظر النحو الوافي ٢٥٦/١

ومن القرينة عرفنا أن الضمير يعود الى الله تعالى وهو البعيد في قوله تعالى : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد ٧) فالضمير المستترفي (جعلكم) يعود الى الله تعالى وليس الى الرسول[1].

وهكذا فان الخط العام هو أن يعود الضمير الى أقرب مذكور كما قلنا ، فاذا قلنا: (جاء محمد وخالد اكرمته) فالضمير يعود على خالد لأنه الأقرب، وفي قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ (يونس٥)

الضمير في (قدره) يعود على القمر لأنه الأقرب [2].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِى ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ (الحج ٧٨) فالضمير(هو) راجع الى الله تعالى[3] وقيل الى (ابراهيم) وهو أقرب مذكور[4] وأحيانا يعود الضمير على المتحدث عنه وليس للقرب والبعد أثر في عود الضمير هنا،نحو قوله تعالى :﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾(الروم ٤٨) فالضمير في قوله (من خلاله) يعود الى السحاب وهو المتحدث عنه في سياق الآية، إذ تقول الآية في أولها ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾ فالحديث ينصب على السحاب ولذلك عاد الضمير عليه. ومثل هذا النوع لا يكاد يظهر خلاف في عودة الضمير، فالآية واضحة لا تحتاج الى طول نظر في سبيل الحكم على عودة الضمير، إلا ماورد نادرا من آراء

---

[1] جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني ٩٥/١

[2] معاني النحو لفاضل السامرائي ٥٨/١

[3] الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري ١٦٩/٣

[4] البحر المحيط لابي حيان الاندلسي ٥٤٠/٧

كالذي قال به العكبري من عود الضمير الى السحاب أو الكسف في قوله تعالى :(ويجعله كسفا) ولكن العبرة برأي الأكثرية(١) .

وقد يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل المتقدم نحو قولنا : (من صدق فهو خير له، ومن كذب فهو شر عليه) فالضمير يعود في الجملة الأولى الى الصدق وهو مأخوذ من الفعل صدق فهذا الفعل هو الدليل على هذا المصدر يشتركان في مادة الاشتقاق . وفي الجملة الثانية يعود الضمير الى (الكذب) المفهوم من مادة (كذب) ويلتقيان في الاشتقاق.

ومن ذلك تقول للصانع : (اتقن فهو سبب الخير والشهرة) أي الإتقان، وتقول للجندي : (اصبر فهو سبب النصر) اي الصبر(٢).

وعلى ذلك يمكن فهم كثير من النصوص القرآنية التي من هذا القبيل كقوله تعالى : ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ (المائدة ٨) فإن مرجع الضمير (هو) مفهوم من الفعل (إعدلوا) لأن الفعل يتضمنه ويحتويه ويدل عليه ولكن من غير تصريح كامل بلفظ فهو (العدل) المفهوم ضمنا من قوله: (اعدلوا) واللفظان (اعدلوا) و (العدل) مشتركان في أصل المعنى العام وفي ناحية من مادة الاشتقاق(٣).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾(البقره٢٧١) .

والمعنى فاخفاؤها خير لكم،فالضمير: (هو) يعود الى الإخفاء ولم يتقدم ذكره بل تقدم فعله(٤) .

---

(١) ينظر الطبري، جامع البيان ٦٤/٢١، والعكبري ١٠٤٢/١

(٢) النحو الوافي ٢٥٧/١

(٣) النحو الوافي ٢٥٧/١

(٤) معاني النحو ٥٧/١، ٥٨

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ (المائدة ٨٩) فالضمير في (فكفارته) يعود الى (العقد) المفهوم من الفعل (عقدتم)(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الانعام ١١٢) فالضمير في (ما فعلوه) يعود الى الإيحاء المفهوم من الفعل (يوحي)(٢)

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ (الانعام ١٢١) فالضمير في (انه) يعود الى الأكل المفهوم من الفعل (تأكلوا)(٣) وكأنه قيل مالم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقاً على سبيل المبالغة(٤).

والضمير في (قبله) يعود الى (الهدى) المفهوم من الفعل هداكم في قوله تعالى :﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (البقرة ١٩٨).

ونشير الى أن هذا الوجه هو احتمال من احتمالات متعددة وإن كان الأولى عوده الى المصدر كما يقول القرطبي(٥) فالضمير يمكن أن يعود الى القرآن والتقدير: (واذكروه كما هداكم بكتابه الذي بيّن لكم معالم دينه وان كنتم من قبل إنزاله عليكم من الضالين)(٦) وقيل يعود الى النبي صلى الله

---

(١) العكبري ، التبيان في اعراب القرآن ٤٥٨/١

(٢) العكبري ٥٣٩/١

(٣) الطبري ٢٢/٨

(٤) الرازي ، مفاتيح الغيب ٧٨/١٣

(٥) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن ٢٨٢/٢

(٦) الرازي ١٤٦/٥

عليه وسلم كناية عن غير مذكور⁽¹⁾ والآية تحتمل ثلاثة أوجه: الأول عود الضمير على المصدر وهو الأولى، والثاني الى القرآن، والثالث الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير مذكور .

والضمير في (اليه) يعود الى (اللقاء)من قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة ٤٦)⁽²⁾

والضمير (هو) يعود الى الصبر المفهوم من (صبرتم) في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ (النحل ١٢٦)⁽³⁾.

والضمير (هو) يعود الى (التطوع) المفهوم من (تطوع) في قوله تعالى :﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾(البقرة ٢٤٨) ⁽⁴⁾

والضمير في (انها) يعود الى الاستعانة المفهومة من (استعينوا) في قوله تعالى :﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (البقرة٤٥) والضمير هنا يحتمل أوجها أخرى أشهر ما قيل فيها عود الضمير على الصلاة لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم، وقيل عليهما ولكن كنى عن الأغلب وهو الصلاة ⁽⁵⁾

إلا أن هناك احتمالا ضعيفا ذهب اليه بعض العلماء وهو أن يعود الى إجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو اليه، وقد ضعّف الطبري هذا القول لأنه لم يجر للفظ الاجابة ذكر وقال: "وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام الى باطن لا دلالة على صحته"

⁽¹⁾ القرطبي ٢/٢٨٢

⁽²⁾ دراسات لاسلوب القران الكريم ٣٨/٨

⁽³⁾ العكبري ٨١/١

⁽⁴⁾ العكبري ١٥١/١

⁽⁵⁾ القرطبي ٢٣٥/١، ٢٥٤

ويريد الطبري بالظاهر ماتعرفه العرب من كلامها، والباطن ما يستنبطه العلماء بالبحث (١) وما ذهب اليه الطبري هو عين الصواب، فلا يمكن أن نلجأ الى التفسير الغامض البعيد ونترك الواضح الظاهر المدعوم بالقرائن والسياق .

والضمير (هو)يعود الى المصدر (التعظيم) المفهوم من يعظم في قوله تعالى﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ (الحج ٣٠) أي التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشئ منهى(٢) .

والضمير (الهاء) يعود الى المصدر (المواعدة) المفهوم من واعدنا في قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ (الاعراف ١٤٢)(٣)

والضمير في كلمة (به) يعود الى المصدر (النكوص) المفهوم من (تنكصون) في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (المؤمنون ٦٦-٦٧)(٤).

والضمير في (اتخذوها) يمكن أن يعود الى المصدر (النداء) المفهوم من قوله تعالى :﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ (المائدة ٥٨) وقيل يعود الى الصلاة(٥).

---

(١) الطبري ٣٧٢/١

(٢) القرطبي ٣٧/١٢، والعكبري ٩٤٠/٢

(٣) البحر المحيط ١٦٠/٥

(٤) البحر ٥٧٢/٧

(٥) الكشاف ١ /٦٣٧، والبحر ٣٠٣/٤

والضمير في (عنها) يعود الى (النقمة) المفهومة من (انتقمنا) في قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الاعراف ١٣٦) وقيل تعود الى الآيات(١) .

وفي قوله تعالى ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ ﴾ (يوسف ٩) فالضمير في (بعده)يمكن أن يعود الى مصدر (اقتلوا) أو (اطرحوه) أو الى يوسف(٢) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥ ﴾ (الكهف ٤-٥) فالضمير في كلمة (به) يمكن أن يعود الى المصدر المفهوم من (قالوا) أو (الاتخاذ) المفهوم من (اتخذ) وقيل يعود الى الله تعالى، وهذا التأويل أذم للكافرين (٣) .

وفي قوله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الاعراف ١٥٣) فالضمير في (بعدها) يعود الى عمل السيئات أو التوبة المفهومة من (تابوا)(٤).

والأصل أن يعود الضمير الى المضاف اذا كان في الكلام مضاف ومضاف اليه نحو قولنا(جاء أخو خالد فأكرمته) فالإكرام هنا للأخ وليس لخالد .

---

(١) البحر ١٤٥/٥

(٢) الكشاف ٤٣٠/٢

(٣) البحر ١٣٧/٧

(٤) البحر ١٨٥/٥

وكذلك قوله تعالى﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (ابراهيم ٣٤) فالضميرفي كلمة (لاتحصوها) عاد على المضاف وهو نعمة(١).

وقد يعود الضمير الى المضاف اليه بحسب القرينة كقوله تعالى: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا ﴾ (غافر ٣٧) فالضمير يعود الى المضاف اليه وهو موسى بحسب سياق الكلام.والقرينة لها شأن عظيم في فهم الكلام وكذلك قوله تعالى ﴿ وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (النحل ١١٤) فالضمير في (إياه) يعود الى (الله تعالى) مع أنه مضاف اليه لدلالة القرينة على ذالك(٢).

وقد يحتمل عود الضمير الى المضاف أو المضاف اليه في قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا ﴾(ال عمران ١٠٣) فالضمير في (انقذكم منها) يمكن أن يعود الى الشفا لأن الشفا من الحفرة(٣) .

ويمكن أن يعود الى الحفرة وهي مضاف اليه فاذا أنقذهم من الحفرة فقد أنقذهم من شفا الحفرةلأن شفاها منها(٤) .

ومن أساليب القرآن أن يخبر عن أحد الشيئين وهو لهما وذلك كثير موجود في كلام العرب في أشعارها ونثرها كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا ﴾ (الجمعة ١١) ففي قوله (انفضوا اليها) يعني اسرعوا الى التجارة وتركوك يا محمد على المنبر وذلك أن التجارة التي رأوها فانقض القوم اليها وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم قائما(٥) ولم يعلق

---

(١) معاني النحو ٥٩/١

(٢) معاني النحو ٥٩/١

(٣) الطبري ٥٠،٥١/٤

(٤) الرازي ١٨١/٨

(٥) الطبري ١٣١/٢٨-١٣٢

الطبري على عود الضمير هنا مع أنه أمر لافت للنظر. وذهب البيضاوي الى أن المراد التجارة برد الكناية لأنها المقصودة، وقيل تقديره اذا رأو تجارة انفضوا اليها واذا رأوا لهوا انفضوا اليه(١) ويقصد بذالك أن الضمير بالافراد وهو (لهما) أي للهو والتجارة، ويبدو من الحادثة التي حصلت في ترك النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم أن السبب الأساسي كان هو التجارة بالدرجة الأولى نظرا لحاجتهم الماسة للطعام، وذهب الرازي الى أن الضمير يعود الى التجارة لما أنها أهم اليهم(٢) وقال الزجاج: انفضوا اليه واليها ومعناهما واحد كقوله تعالى :(واستعينوا بالصبر والصلاة) (البقرة ٤٥)(٣) ففي قوله تعالى ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ جاء بالضمير في (وانها) بالافراد وهو للاثنين على قول بعض العلماء إلا أن هذا الضمير اختلفت التأويلات في مرجعه الى وجوه أخرى فقيل: انه عائد الى الصلاة أي صلاة ثقيلة إلا على الخاشعين. وقيل: عائد الى الاستعانة المفهومة من الفعل (استعينوا) أو عائد الى جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل(٤) وذهب الدكتور.فاضل السامرائي الى عود الضمير الى الصلاة لإن الكلام على الصلاة وقد تقدم ذكرها والمطالبة بها في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(البقرة ٤٣)(٥) فسياق الآية واهتمامها يعود حول الصلاة بالمرتبة الأولى ثم نهاية الآية يعزز هذا القول من حيث ذكره الخشوع، والخشوع يكون في الصلاة . وذهب ابن كثير الى أن الضمير يعود

---

(١) البيضاوي، انوار التنزيل واسرار التأويل ٢/٢١٢-٢١٣

(٢) الرازي ١٢/٣٠

(٣) الرازي ١٢/٣٠

(٤) الرازي ٢/٥٣

(٥) معاني النحو ١/٥٨

الى الصلاة وقال نص عليه مجاهد واختاره ابن جرير، ثم أضاف ابن كثير :ويحتمل أن يكون عائدا الى مايدل عليه الكلام وهو الوصية بذالك(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ (التوبة ٣٤) فقال (ولاينفقونها) بالافراد ولم يقل ولا ينفقونهما بالتثنية لأن العرب تفهم ذلك والقرآن نزل بلغتهم، إلا أن هذا الوجه من التأويل لم يكن هو الوحيد بل هناك آراء أخرى في توجيه هذا الضمير، فقيل: انه يعود الى الأموال أو الى الكنوز المدلول عليها بالفعل، أو الى الذهب والفضة لأنهما جنسان ولهما أنواع فعاد الضمير الى المعنى، وقيل: يعود الى الفضة لأنها أقرب، وقيل: يعود الى الذهب وهو يذكر ويؤنث(٢)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (التوبة ٦٢) فافرد الضمير في (يرضوه) لأنهما في حكم مرضي واحد ومعلوم من كثير من الايات أن مرضاة الله هو مرضاة الرسول والعكس صحيح وذهب سيبويه الى أن التقدير والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه ثم حذف(٣) وذكر الرازي تفصيلا جميلا في عود الضمير في كلمة (يرضوه) يمكن ان نلخصه بالنقاط الآتية :

١) انه تعالى لايذكر مع غيره بالذكر المجمل بل يجب أن يفرد بالذكر تعظيما له

٢) ان المقصود بجميع الطاعات والعبادات هو الله فاقتصر على ذكره

٣) يجوزأن يكون المراد يرضوهما فاكتفي بذكر الواحد

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١٠٣/١

(٢) العكبري ٧٤١/٢

(٣) القرطبي ١٢٣/٨، والعكبري ٦٤٩/٦٤٨/٢

٤) ان العالم بالأسرار والضمائر هو الله تعالى وإخلاص القلب لايعلمه إلا الله، فلهذا السبب خص تعالى نفسه بالذكر

٥) لما وجب أن يكون رضا الرسول مطابقا لرضا الله تعالى وامتنع حصول المخالفة بينهما وقع الاكتفاء بذكر أحدهما كما يقال (إحسان زيد وإجماله نعشني وجبرني)

٦) التقدير والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك(١)

ويبدو لي أن الراجح هو الرأي الخامس والرأي السادس لأن رضا الله تعالى متعلق برضا الرسول ورضا الرسول متعلق برضا الله، وكلاهما متعاضدان ولا ينفك أحدهما عن الاخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ (الشورى٥٢) فالضمير في كلمة (به) يعود الى الكتاب والايمان معا لأن مقصدهما واحد فهو نظير (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وقيل: يعود الى (روحا) أو (الكتاب) أو (الايمان) وهو أقرب مذكور(٢) .

وقد يسبق الضمير لفظ ليس مرجعه بنفسه ولكنه نظير للمرجع أي مثيله وشريكه فيما يدور بشأنه الكلام مثل: (لاينجح الطالب ألا بعمله ولاترسب ألا بعملها) أي الطالبة . وهذا نظير قوله تعلى:﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ (فاطر ١١) أي من عمر معمر فأعيد الضمير على غير المعمر لأن ذكر المعمر يدل عليه لتقابلهما فكان يصاحبه الاستحضار الذهني(٣) .

---

(١) الرازي ١٣١/١٦

(٢) البحر ٣٢٥/٧

(٣) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ١٩/٤

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (يس ٨) فأعاد الضمير للأيدي لأنها تصاحب الأعناق في الأغلال، وأغنى ذكر الأغلال عن ذكرها⁽¹⁾.

وقد يعود الضمير الى غير مذكور كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ (ال عمران ٤٤) فقوله (لديهم) عائد على غير مذكور بل على مادل عليه المعنى أي ما كنت لدى المتنازعين كقوله فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا) (العاديات ٤) أي بالمكان⁽²⁾ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ (الأنفال ١) ضمير الفاعل ليس عائدا على مذكور قبله وانما تفسره وقعة بدر فهو عائد على من حضرها من الصحابة⁽³⁾ وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله أصحابة يوم بدر عن الأنفال⁽⁴⁾ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور ٣٥) فقوله : (نوره) يمكن أن يعود الى محمد صلى الله عليه وسلم أو الى المؤمنين أو الى القرآن والايمان . وهذه الأقوال الثلاثة عاد الضمير فيها الى غير مذكور بخلاف عوده الى الله تعالى⁽⁵⁾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ (البقرة ١٤٦) الضمير في (يعرفونه) يعود الى الرسول في أحد الأقوال وجاز الاضمار وإن لم يجر له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع،

⁽¹⁾ البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ١٩/٤

⁽²⁾ البحر ١٥٠/٣

⁽³⁾ البحر ٢٦٨/٥

⁽⁴⁾ النكت والعيون لعلي بن محمد الماوردي ٢٩٢/٢

⁽⁵⁾ البحر ٤٧/٨

ومثل هذا الاضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علما معلوما بغير إعلام . وقيل الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة(١) .

وذهب الرازي الى أن الضمير في (يعرفونه) يعود الى الرسول وهو أولى من غيره من وجوه :-

١) أن الضمير انما يرجع الى مذكور سابق وأقرب المذكورات العلم في قوله﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ والمراد من العلم النبوة، وأما أمر القبلة فما تقدم ذكره البتة

٢) ان الله تعالى ما أخبر في القرآن أن أمر تحويل القبلة مذكور بالتوراة والانجيل وأخبر فيه أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة ولا الأنجيل، فكان صرف هذه المعرفة الى أمر النبوة أولى .

٣) ان المعجزات لاتدل أدل دلالتها إلا على صدق محمد عليه السلام، فأما أمر القبلة فذلك انما ثبت لأنه أحد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فكان صرف هذه المعرفة الى أمر النبوة أولى(٢). وذكر القرطبي المرجع الى الرسول والى القبلة من دون ترجيح(٣) .

وقد يعود الضمير الى مايدل عليه حساً، فقد يستغنى عن ذكر الاسم الذي يعود عليه الضمير بما يدل عليه حساً نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي ﴾(يوسف ٢٦) و ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ (يوسف ٢٦) فالضمير يعود الى امراة العزيز ولم يتقدم لها ذكر صريح فهو مدلول عليه حساً، ومثله قوله تعالى :﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ ﴾

---

(١) الكشاف ٢٠٣/١، والبحر ٣٢/٢

(٢) الرازي ١٤٤/٤

(٣) القرطبي ١١٠/٢

(القصص ٢٦) فالضمير يعود الى موسى وذلك لأن الكلام يدور عليه وهو مدلول عليه بالحس[١] .

وقد يكون الضمير متصلا بشئ وهو لغيره كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون ١٢) يقصد آدم ثم قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً ﴾ (المؤمنون ١٣) فهذه لولده لأن آدم لم يخلق من نطفة ، وأطلق السيوطي على ذلك مصطلح (الاستخدام)[٢] .

وقد يعود الضمير الى أشياء متلازمة، نحو قوله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الاسراء ١٠٩) فيمكن أن يفهم من الآية أن الضمير يعود الى القرآن أو المتلو أو البكاء أو السجود[٣] ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ (النور ٦٣) فالضمير في (عن أمره) يمكن أن يعود الى الله تعالى والى الرسول صلى الله عليه وسلم فهما متلازمان، فمخالفة الله هي مخالفة الرسول، ومخالفة الرسول هي مخالفة لله تعالى[٤]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الاسراء ٢) فيمكن أن يعود الضمير في (جعلناه) الى الكتاب أي التوراة ويمكن أن يعود الى موسى ولاتناقض في ذالك[٥].

ومن ذالك قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ (الانعام ٦٦) فالضمير في كلمة (به) يمكن ان يعود الى القرآن أو العذاب أو الوعيد أو

---

[١] معاني النحو ٥٧/١

[٢] الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٢٣٠

[٣] العكبري ٨٣٦/٢ ، ودراسات لاسلوب القران الكريم ٨٣/٨

[٤] الرازي ٤٢/٢٤

[٥] الطبري ٤٥/٢٤/١٥، والقرطبي ١٣٩/١٠

النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يوجد تناقض في عود الضمير الى كل منها(١).

ومن ذالك قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (الرعد ٢٧) فيمكن أن يعود الضمير في (يهدي اليه) للحق أو للاسلام أو لله عزوجل أو للنبي صلى الله عليه وسلم أو الى الجنة، ولاتناقض في ذلك فكله هدف واحد(٢) .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ (سبأ ٥٢) فيمكن عود الضمير في (به) الى الله تعالى أو الى الكتاب أو الى الرسول أو الى الحق ، وكلها أشياء متلازمة(٣) .

وقد يكون ترجيح عود الضمير لسبب من الأسباب، فقد يكون ترجيح عود الضمير بسبب الاختلاف في القراءة كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (البقرة ٢١٣) الضمير في ليحكم يعود الى الله تعالى وقيل الى الكتاب، ولكن في قراءة من قرأ (لتحكم) بالتاء يكون مرجع الضمير اليه تعالى(٤) .

وقد يكون الترجيح للضمير بسبب الظروف المحيطة بالقصة أو الحادثة، من ذلك قوله تعلى ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ (التوبة ٤٠) فقال (عليه) وأكثر الأقوال على أنه أبو بكر لأنه هو الذي كان منزعجاً، وقيل يعود على

---

(١) دراسات لاسلوب القران الكريم ٧٥/٨

(٢) القرطبي ٢٠٦/٩، والرازي ٥٥/١٩

(٣) الطبري ١٣١/٢٢، والرازي ٢٧٣/٢٥

(٤) دراسات لاسلوب القران الكريم ٧٣/٨

الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل عليهما وأفرد لتلازمهما ، والظاهر عوده على أبي بكر(١).

ومن المواضع التي اختلف في ترجيح الضمير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾(النور ٤١) فالضمير في (علم) له عدة احتمالات: الأول يعود الى الله تعالى أي كل قد علم الله صلاته وتسبيحه، والثاني أن يعود الضمير الى لفظ (كل) ورجح الطبري ذلك وقال انه الأقوى لأنه جاء برفع (كل) على الابتداء فيرجع ضمير الفاعل اليه، ولو كان فيه ضمير اسم الله لكان الاولى نصب (كل)(٢) .

والأصل في الضمير أن يعود الى الاسم المتقدم وقد يعود الى متأخر في اللفظ متقدم بالرتبة كقوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (طه ٦٧) فالضمير عاد الى موسى وهو متأخر لفظاً متقدم رتبة ، ونظير هذه الأية قوله تعالى :﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (القصص ٧٨) وقوله تعالى:﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن ٣٩)

والأصل توافق الضمائر في المرجع وهو أفضل من التشتيت، ففي قوله تعالى :﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (طه ٣٩) قال بعضهم إن الضمير في (فاقذفيه) الثانية للتابوت وفي الأول لموسى عليه السلام، وقد عاب ذلك الزمخشري وجعله تنافرا وهو ما يتناقض مع الاعجاز، فذهب الى أن الضمائر كلها راجعة الى موسى، ورجوع بعضها الى موسى وبعضها الى التابوت فيه هجنة لما فيه من تنافر النظم الذي أصل الاعجاز(٣).

---

(١) العكبري ٢/٦٤٥، والدراسات لاسلوب القران الكريم ٨/٧٨

(٢) معاني النحو ١/٥٧

(٣) الاتقان ٢٩١

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ (الحجر ١٦-١٧) الضمير في (زيناها) عائد الى البروج لأنها المتحدث عنها والأقرب للفظ، وقيل الى السماء وهو قول الجمهور حتى لاتختلف الضمائر .

وقد يعود الضمير الى اللفظ أو المعنى كقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج ٢٧) الضمير في (يأتين) يعود الى (كل) وهو الابل الضوامر على المعنى أي على إبل ضامرة، ولو قال: (يأتي) على اللفظ صح(١) وفعل غير العقلاء كفعل المؤنث(٢) وأعاد الضمير الى الإبل تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها(٣) .

وفي بعض الأحيان يحصل الاتفاق في عود الضمير ولا يوجد خلاف في الآراء كقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ (هود ٢٨) فالضمير في الفعل (عميت) يعود الى الرحمة(٤) وكقوله تعالى :﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾(يونس ٧٤) فالضمير في كلمة (به) يعود الى نوح(٥) وكقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(التوبة ٣٣) فالضمير في (ليظهره) يعود الى الاسلام(٦) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ

---

(١) الرازي ٢٩/٢٣

(٢) البيان ١٧٤/٢

(٣) القرطبي ٢٧/١٢

(٤) الطبري ٣٨/١٢، والقرطبي ١٩/٨

(٥) الطبري ١٨٨/١١، والعكبري ٦٨٢/٢

(٦) الطبري ١٥٠/١٠

﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ (الاعراف ١٤٥) فالضمير في قوله (فخذها) يعود الى الألواح(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (المائدة ١٦) فالضمير في كلمة (به) يعود الى الكتاب(٢) ومن ذالك قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ (النساء ٣٥) فالضمير في الفعل (يريدا) يعود الى الحكمين(٣).

وهناك اختلاف في عود الضمير فيما يخص تذكيره وتأنيثه، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ (النحل ٦٧) ذكّر الضمير في (منه) لأنه يعود الى (شيء) المحذوف أو الى معنى الثمرات وهو الثمر، أو الى النخل أي من ثمر النخل، أو الى المذكور(٤) ومن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ (النحل ٩) الضمير في منها يعود الى السبيل وهو لفظ يذكر ويؤنث قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ (يوسف ١٠٨) فأنث وقال: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ (الاعراف ١٤٦) فذكر، وقيل: السبيل بمعنى سبل أي بمعنى الجمع فأنث على المعنى(٥).

وقد يدخل موضوع عود الضمير بما يسمى الإخبار بالمصدر عن الذات ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ (هود

---

(١) الطبري ٧٨/٩

(٢) الطبري ٢٢١/٦، والرازي ١٩٤/١١

(٣) الطبري ١٠٨/٥، والعكبري ٣٥٥/١

(٤) العكبري ٨٠١/٢

(٥) الطبري ١١٢/١٤، ١١٣ ، والعكبري ٧٩٠/٢، وينظر المعجم المفصل في المذكر والمؤنث ٢٣٧

٤٦) اختلفت الأقوال في عود الضمير في كلمة (إنه) ولها عدة احتمالات فقيل: إنه يعود الى النداء والسؤال في ابنه إي إن سؤالك عنه عمل غير صالح، أو إن ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه، وقيل :إنها ضمير الركوب وقد دل عليه (اركب معنا)[١] وقيل: إنه من باب الإخبار بالمصدر عن الذات من المبالغة أي أن ابنك تحول الى عمل غير صالح ولم يبق فيه عنصر من عناصر الذات، وورد من هذا القبيل في لغة العرب قولهم: رجل صوم ورجل فطر لمن يكثر مزاولته لهذه الأعمال وهو للمبالغة بجعل العين هو الحدث نفسه، وورد في شعر الخنساء قولها في وصف ناقتها: (فانما هي إقبال وإدبار) أي مقبلة ومدبرة فأخبرت بالمصدر عن الذات للمبالغة[٢].

واختلاف مدلول اللفظ له علاقة في عود الضمير فلفظ (القتل) لها معنيان معنى مألوف شائع وهو ضد الحياة ومعنى آخر هو قتل العلم بحثا أي المجيء على جميع تفاصيله من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (النساء ١٥٧) فالضمير في (قتلوه) يمكن أن يعود الى عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾في الآية نفسها .

ويمكن أن يقصد بها قتل العلم فيعود الضمير الى قوله في آخر الآية: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ والمعنى ماقتلوه علمهم به يقينا، ويقال قتلت الشيء علما أي علمت علماً يأتي على جميعه .

واستعير لفظ القتل لأن القتل هو الإتيان على جميع نفس المقتول، وهذا العلم قد أتى على جميع المعلوم[٣].

---

[١] العكبري ٢/٧٠١، والبيان ٢/١٦

[٢] معاني النحو ١/١٧٦

[٣] العكبري ١/٤٠٦، والبيان ١/٢٧٤

وللسياق أثر كبير في فهم عود الضمير، فمن ذلك قوله تعالى :﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ (الانعام ٦٦) الضمير في (به)له تعلق بالآية السابقة وهي قوله تعالى ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾ (٦٥) فيمكن أن يعود الضمير في كلمة (به) على العذاب أو الوعيد أي بما نقول ونخبر ونوعد من الوعيد(١) ويمكن أن يعود الى تصريف الآيات، وذكر الرازي انه يمكن عوده الى القرآن وكل ذلك حق الوعيد والعذاب، وتصريف الآيات، والقرآن(٢).

ومما له تعلق بالسياق قوله تعالى :﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ﴾ (الحديد ٢٢) الضمير في (نبرأها) يمكن أن يعود الى الأنفس(٣) ويقوي هذا الوجه القرب لهذه اللفظة من الضمير، ويمكن أن يعود الى الأرض، ويمكن أن يعود الى المصيبة(٤).

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا ﴾ (الروم ٥١) يرجح عود الضمير في (فرأوه) على الزرع وذلك بالرجوع الى سياق ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ (الروم ٥٠) فدل عليه :(يحيي الأرض بعد موتها)(٥)أو (فانظر الى آثار

---

(١) الطبري ٢٩٦/٧

(٢) الرازي ٢٥/١٢

(٣) الطبري ٣٢٣/٢٧

(٤) البيان ٤٢٤/٢

(٥) العكبري ١٠٤٢/٢

رحمة الله)[١]. وهناك أقوال أخرى لكنها دون الرأي الأول قوة، فقيل إن الضمير يعود الى الريح أو السحاب[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ (الحجر ٧٦) الضمير في (إنها) يعود الى قوم لوط والذي يوضح هذا المرجع سياق الآيات قبلها إذ قال في الآية قبلها وهي الآية (٦٧) :﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فوضحت مرجع الضمير أي أن هذه المدينة مدينة سدوم لبطريق واضح مقيم[٣] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ (يوسف٢١) الهاء في (أمره) يمكن أن تعود الى الله تعالى لأنه تعالى لما يريد لادافع لقضائه ولا مانع لحكمه في أرضه وسمائه، وهذا ظاهر من خلال لفظ الجلالة المنصوص عليه في الآية[٤] .

ويمكن أن يعود الضمير على يوسف، وسياق الآية يوضح ذلك من خلال قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ (يوسف ٢١) أي والله غالب على أمر يوسف[٥] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الحجر ٩-١٢) فبعضهم ذهب الى أن الضمير في (نسلكه) يعود الى القرآن وحجته أن لفظ (الذكر) قد ورد قبل هذا الفعل[٦].

---

[١] البيان ٢/٢٥٣

[٢] العكبري ٢/١٠٤٢

[٣] الطبري ١٤/٦٢، والقرطبي ١٠/٣١، والرازي ١٩/٢١

[٤] الرازي ١٨/١١٢

[٥] الطبري ١٢/٢٣٠، والعكبري ٢/٧٢٧

[٦] الرازي ١٩/١٧٢

وبعضهم ذهب الى أن الضمير يعود الى (الاستهزاء) لأن لفظ الاستهزاء قد ورد قريبا من هذا الفعل⁽١⁾ . وبعضهم عمم القول في عود الضمير الى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك⁽٢⁾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ (يوسف ٢٠) الضمير في (فيه) يمكن أن يعود الى يوسف أي كان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين⁽٣⁾ ويمكن أن يعود الى الثمن البخس⁽٤⁾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ (الاعراف ١٣) الضمير في (منها) يمكن أن يعود الى الجنة⁽٥⁾ ويمكن أن يعود الى السماء كما يقول بعض المعتزلة⁽٦⁾ .

ومن ذلك لفظ (الكتاب) وهو لفظ مشترك قد يقصد به القرآن وقد يقصد به التوراة، والسياق هو الذي يوضح مدلول اللفظ، ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾(المائدة ٤٤) الضمير في (عليه شهداء) يعود الى (كتاب الله) وكتاب الله هنا المقصود به التوراة وليس القرآن، والسياق يوضح ذلك فقال في أول الآية: (إنا أنزلنا التوراة) ثم قال بعد ذلك: (بما استحفظوا من كتاب الله) وهو يؤكد أن المقصود بالكتاب التوراة⁽٧⁾.

---

(١) العكبري ٧٧٧/٢

(٢) القرطبي ١٠ /٧

(٣) الطبري ٢٢٧/١٢

(٤) الرازي ١٨ ١١١

(٥) الطبري ١٧٣/٨

(٦) الرازي ٣٨/١٤

(٧) الرازي ٥/١٢

وفي قوله تعالى :﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ ﴾ (القمر ١٥) لو أخذت هذه الآية مقتطعة لم يتضح المقصود إلا من خلال سياق الآية التي قبلها إذ يقول ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ (القمر ١٣-١٥) فسياق الآية وضح أن الضمير في (تركناها) يعود الى السفينة المتحدث عنها (١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (ألاحقاف ٨) الذي يوضح الضمير في كلمة (فيه) هو السياق في أول الآية إذ يقول: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ فالمقصود بالضمير هو القرآن الكريم(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ (محمد ١٠) عود الضمير في (أمثالها) يتضح من خلال السياق، إذ تقول الآية في أولها: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ فالضمير في أمثالها يعود الى العاقبة أو العقوبة(٣) أي وللكافرين من قريش من العذاب العاجل أمثال عاقبة تكذيب ألامم الذين كانوا من قبلهم رسلهم(٤).

وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ (الذاريات ٢٣) ذهب بعضهم الى أن عود الضمير في(إنه لحق) الى الآية التي قبلها وهي قوله تعالى :﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (الذاريات ٢٢) اي إن الذي قلت لكم أيها الناس إن في السماء رزقكم وما توعدون لحق كما حق إنكم تنطقون(٥) .

---

(١) الطبري ١٢٦/٢٧

(٢) الطبري ٨/٢٦

(٣) العكبري ١١٦١/٢

(٤) الطبري ٦١/٢٦

(٥) الطبري ٢٦٦/٢٥

وقيل: يعود الى القرآن فكأنه قال إن القرآن لحق نطق به الملك نطقا مثل ما إنكم تنطقون(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ (الكهف ٥١) الضمير في (أشهدتهم) يعود الى إبليس وذريته، والسياق ما قبل هذه الآية يؤيده فيقول تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ (الكهف ٥٠)(٢) وقيل يعود الى المشركين(٣) .

من ذلك يتبين أن للسياق ألاثر الأكبر في معرفة عود الضمير، وأكثر العلل والتوجيهات تعود في هذا الموضوع الى السياق، وهكذا هو شأن السياق في فهم جميع النصوص، ولاسيما النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا يمكن فهم أسرار التعبير القرآني إلا من خلال السياق، وهذا ما نجده واضحا في مؤلفات الباحثين قدماء ومحدثين، مثال ذلك كتاب (درة التنزيل) للخطيب الاسكافي فهو قائم تحليله على السياق، وكذلك كتاب (ملاك التأويل) لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي . ومن المعاصرين الدكتور فاضل السامرائي معظم كتبه قائم على التحليل من خلال السياق، هكذا هو شأنه في (التعبير القراني) و (لمسات بيانية) و (من بلاغة الكلمة) ويقول الدكتور فاضل (قد تكون للسياق التي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصه فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة، وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتتطبع ألفاظها بتلك السمة، وهذا واضح وكثير في ألفاظ القرآن الكريم إذ كثيرا ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد، واذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو

---

(١) الرازي ٢١١/٢٨

(٢) الطبري ١٥/ ٣٢٦، والعكبري ٢ / ٨٥٤

(٣) القرطبي ١١ / ٣

ذاك(١)، وكذلك الحال في القراءات القرانية وهذا ما نجده واضحا في كتاب (الكشف في علل القراءات) لمكي القيسي فهو قائم في تحليله على السياق للتفريق بين قراءة وأخرى .

ويجري الضمير مجرى اسم الاشارة، فيكون مفردا ويرجع الى مثنى أو متعدد، فأن اسم الاشارة وإن كان مفردا فقد يشار به الى مجموع(٢) مثال ذلك قوله تعالى:﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ ﴾ (النساء ٤) فالضمير في (منه) جار مجرى اسم الاشارة كأنه قيل عن شيء من ذلك كما قال تعالى :﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ (آل عمران ١٥) بعد ذكر الشهوات(٣) .

ونحو قوله تعالى :﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (الانعام ٤٦) أي يأتيكم بذاك أجراء للضمير مجرى اسم الاشارة(٤).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس ٥٨) الضمير (هو) راجع الى (ذلك) هما شيء واحد عبر عنه باسمين على سبيل التوكيد ولذلك أشير اليه بـ (ذلك) وعاد الضمير اليه مفردا(٥) .

وفي مرجع الضمير الى جمع المؤنث العاقل فالأفضل أن يكون ضميره نون جمع المؤنث وهي نون النسوة في جميع حالاته نحو (الطالبات

---

(١) التعبير القراني لفاضل السامرائي ٢٣٧ .

(٢) دراسات لأسلوب القران الكريم ٨ / ٥١

(٣) دراسات لأسلوب القران الطريم ٨ / ٥٢ .

(٤) دراسات لاسلوب القران ٨ / ٥٣

(٥) دراسات لاسلوب القران ٨ / ٥٤

حضرن) جمع المؤنث سالم أو جمع تكسير للمؤنث نحو (الغوالي تعلمن) وهو أولى من قولنا (الطالبات حضرت والغوالي تعلمت) حيث يكون الضمير مفردا مؤنثا مع صحة مجيئه بدلا من نون النسوة، فاستعمال أحد الضميرين صحيح فصيح ولكن نون النسوة في هذه الصورة أصح وأفصح(١) وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ (البقره ٢٣٣)(٢).

ومرجع الضمير الى جمع التكسير الذي مفرده غير عاقل أو مؤنث غير عاقل جاز في الضمير أن يكون مفردا مؤنثا وأن يكون نون النسوة الدالة على جمع الاناث نحو: (الكتب نفعت أو نفعن) ومثل (الزروع أثمرت أو أثمرن) ومثل (الليالي ذهبت أو ذهبن) ومع أن الأمرين في صورتي المفرد غير العاقل جائزان نرى الأساليب الفصحى تؤثر الضمير المفرد المؤنث اذا كان المراد من جمع التكسير الدلال على الكثره، وتاتي بنون النسوة اذا كان المراد على القلة، فيقال: (قضيت بالقاهرة أيام خلت من شهرنا) اذا كان المنقضي هو الأكثر(٣)، أو خلون اذا كان المنقضي هو الاقل، ويقولون :(هذه اقلام تكسرت وعندي اقلام سلمن) اذا كان عدد المكسور هو الأكثر وهذا ما نطق به القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ (البقرة ١٩٧) فأعاد الضمير عليهن بالجمع لأنهن ثلاث أشهر، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (نوح ١٥ – ١٦) فأعاد الضمير على السماوات بصيغة الجمع لأنهن سبع(٤).

---

(١) النحو الوافي ١ / ٢٦٤

(٢) معان النحو ١ / ٥٩

(٣) النحو الوافي ١/ ٢٦٤ – ٢٦٥

(٤) معاني النحو ١ / ٦٠

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا ﴾ (الاحزاب ٧٢) أتى بضمير الاناث (فابين) لأن جمع التكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وإن كان مذكرا(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ (فصلت ٣٧) الضمير في (خلقهن) لليل والنهار والشمس والقمر لأن حكم جماعة مالا يعقل حكم الانثى أو الاناث(٢) و (خلقهن) جمع بالهاء والنون لأن المراد من الكلام واسجدوا لله الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر وذلك جمع وأنث كنايتهن وإن كان من شأن العرب اذا جمعوا الذكر الى الأنثى أن يخرجوا كنايتهما بلفظ كناية المذكر فيقولوا: (أخواك وأختاك كلموني) ولا يقولوا كلمتني لأن من شأنهم أن يؤنثوا أخبار الذكور من غير بني ادم في الجمع، فيقولوا: (رأيت مع عمرو أثوابا فأخذتهن منه) و (أعجبني خواتيم لزيد قبضتهن منه)(٣).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ (النمل ٣٧) الضمير في (بها) عائد الى الجنود وهو جمع تكسير فيجوز أن يعود الضمير عليه كما يعود الى الواحده كما قالت العرب: (الرجال وأعضادها)(٤) .

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ (البقرة ٣١) قرأ أبي (ثم عرضها) وقرأ عبد الله (ثم عرضهن)(٥) .

---

(١) دراسات لاسلوب القران ٨ / ٦٤

(٢) دراسات لاسلوب القران ٨ / ٦٤

(٣) الطبري ٢٤ / ١٥١

(٤) دراسات لاسلوب القران ٨ / ٦٤

(٥) دراسات لاسلوب القران ٨ / ٦٤

وقال الطبري : ولا تكاد العرب تكني بالهاء والميم إلا عن أسماء بني آدم والملائكة، وأما اذا كنّت عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفت فأنها تكني عنها بالهاء والالف، أو بالهاء والنون، فقالت (عرضهن) أو (عرضها) وكذلك تفعل اذا كنّت عن أصناف من الخلق كالبهائم والطير وسائر أصناف الأمم وفيها أسماء بني آدم والملائكة فأنها تكنّي عنها بما وصفنا من الهاء والنون أو الهاء والالف . وربما كنّت عنها اذا كانت كذلك بالهاء والميم نحو: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾(النور ٤٥) فكنّى عنها بالهاء والميم وهي أصناف مختلفة فيها الآدمي وغيره، وذلك وإن كان جائزا فأن الغالب المستفيض في كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية أسماء أجناس الامم أذا اختلطت بالهاء والالف أو الهاء والنون فلذلك قلت أولا بتأويل الاية أن تكون الأسماء التي علمها آدم أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة(١) .

وقال البيضاوي : الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنا اذ التقدير أسماء المسميات فحذف المضاف اليه لدلالة المضاف عليه(٢).

وقال ابن كثير : وهذه عباره عما يعقل، وهذا الذي رجع به ليس بلازم فأنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب(٣)

---

(١) الطبري ٣١١/١

(٢) البيضاوي ٦٩/١

(٣) ابن كثير ٨٩/١

وقال الرازي : فلم قال: (عرضهم) ولم يقل: (عرضها) قلنا: لأنه لما كام في جملتها الملائكة والإنس والجن هم العقلاء فغلب الأكمل، لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص كلما غلبوا⁽¹⁾ .

وقد يعود ضمير الجمع على المثنى فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ (الانعام ١٥٦) اعاد الضمير جمعا لأن كل طائفة منهم جمع⁽²⁾

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه ١٢٣) فقال: (فما يأتينكم مني هدى) وهو خطاب الجمع وفي ذلك أجوبة كما ذكر الرازي :

١ - قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله (اهبطا) ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صحّ قوله (فإما يأتينكم)

٢ - لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطب مخاطبتهم فقال (فإما يأتينكم) على لفظ الجماعة⁽³⁾.

وقال تعالى :﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ (الانبياء ٧٨) الضمير في (لحكمهم) يراد به المثنى ووقع الجمع موقع التثنية مجازا، أو لأن التثنية جمع وأقل الجمع اثنان⁽⁴⁾ لأن

⁽¹⁾ الرازي ١٩٣/١

⁽²⁾ دراسات لاسلوب القران ٦٦/٨

⁽³⁾ الرازي ٢٢/ ١٣٠- ١٣١

⁽⁴⁾ دراسات لاسلوب القران الكريم ٨ /٦٦

الاثنين جمع في المعنى يعني حكم سليمان وداود(١) وقيل: المراد الحاكمان والمحكوم عليه فلذلك قال: (لحكمهم)(٢).

وقد يراد من الجمع الواحد كقوله تعالى :﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا ﴾ (الانبياء ٣٠) وانما قال كانتا رتقا ولم يقل: (كن) لأن السماوات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس . قال الأخفش: السماوات نوع والأرض نوع ومثله :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا ﴾ (فاطر ٤١) ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين، ومرت بنا غنمان أسودان لأن هذا القطيع غنم وذلك غنم(٣) .

وقال أبو إسحاق (كانتا) لأنه يعبر عن السماوات بلفظ الواحد بسماء ولأن السماوات كانت سماء واحدة وكذلك الأرضون ، وقال: (رتقا) ولم يقل: (رتقين) لأنه مصدر والمعنى كانتا ذواتي رتق(٤) .

وقال الطبري : فان قال قائل: وكيف قيل إن السماوات والارض كانتا، فالسماوات جمع وحكم جمع الاناث أن يقال: في قليله (كن) وفي كثيره (كانت) قيل: إنما قيل ذلك كذلك لأنهما صنفان، فالسماوات نوع والأرض آخر وذلك نظير قول الأسود بن يعفر :

اذا المنية والحتوف كلاهما   توفي المخارم يرقبان سوادي

فقال: كلاهما وقد ذكر المنية والحتوف لما وصفت من أنه عنى النوعين وروى الطبري عن ابي عبيده عن القطامي :

الم يحزمك ان حبال قيس   وتغلب قد تباينتا انقطاعا

---

(١) البرهان ٤ / ٢١

(٢) القرطبي ١١ / ٢٠٣، والرازي ٢٢ / ١٩٦

(٣) الرازي ٢٢ / ١٦٣

(٤) القرطبي ٢١ / ١٨٧

فجعل حبال قيس وهي جمع وحبال تغلب وهي جمع اثنين(١).

وأحيانا يحصل توهم في عود الضمير لدى بعض الناس، فمن ذلك قوله تعالى:﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ (يس ٣٧) فقد يتوهم البعض أن الضمير في (هم) راجع الى الليل والنهار بناء على أن أقل الجمع اثنان وهو فاسد لوجهين : أحدهما أن النهار ليس مظلما، والثاني أن كون أقل الجمع اثنان مذهب مرجوح، إنما الضمير راجع الى الكفار الذين يحتج عليهم بالآيات و (مظلمون) داخلون الظلام كقولك: مصبحون وممسون اذا دخلوا في هذه الأشياء(٢).

ومما قد يقع فيه التوهم قوله تعالى :﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُم ﴾ (يس ٨١) فقد يظن بعضهم أن معناه مثل السماوات والأرض وهو فاسد لأنهم ما أنكرو إيجاد السماوات والأرض حتى يدل على إنكارهم إعادتهما بابتدائهما وإنما أنكروا إعادة أنفسهم، فكان الضمير راجعا اليهم ليحقق حصول الجواب لهم والرد عليهم(٣) وقد عقب الطبري بقوله : فانه تعالى يريد أن خلق مثلكم من العظام الرميم ليس بأعظم من خلق السماوات والأرض، فمن لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما بليت(٤) .

وأحيانا يحصل توسع في المعنى بسبب عود الضمير ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾(فاطر ١٠) فالضمير في كلمة (يرفعه) يحتمل عوده الى الله تعالى ويحتمل عوده الى الكلم فيمكن أن

---

(١) الطبري ١٧ / ٢٧ – ٢٨

(٢) البرهان ٤ / ٢٣

(٣) البرهان ٤ / ٢٣

(٤) الطبري ٢٢ / ٤٠

يكون الله تعالى يرفع العمل الصالح، أو العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، أو الكلم الطيب يرفع العمل الصالح ،ولو قيلت بنصب (العمل) لكان العمل الصالح مرفوعا لا رافعا[1] .

ويقول الطبري : ويرفع ذكر العبد ربه اليه عمله الصالح وهو العمل بطاعته وأداء فرائضه والانتهاء الى ما أمر به[2] .

وذهب القرطبي الى أن معناه يرفعه الله أو يرفع صاحبه، ويجوز أن يكون المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فالكناية في (يرفعه) ترجع الى الكلم الطيب وهوه قول ابن عباس وشهر بن حوشب وسعيد ابن جبير وغيرهم، وعلى أن (الكلم الطيب) هو التوحيد فهو الرافع للعمل الصالح، لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الايمان والتوحيد، أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، ورجح النحاس القول بأن الله تعالى هو الرافع وهو في العربية أولى لأن القراء اتفقوا على رفع (العمل)[3].

وذهب البيضاوي الى أن الكلم يرفع العمل لأن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد، والكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن[4] .

وقال الرازي : وفي الهاء يعني في (يرفعه) وجهان أحدهما هي عائدة الى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفعه العمل الطيب، ورد في الخبر: (لا يقبل الله قولا بلا عمل) وثانيهما هي عائدة الى العمل الصالح فعلى هذا فالفاعل الرافع وجهان أحدهما هوه الكلم الطيب أي الكلم الطيب

---

[1] الجملة العربية والمعنى لفاضل السامرائي ١٥٦

[2] الطبري ٢٢ / ١٤٤

[3] القرطبي ١٤ / ٢١١ – ٢١٢، وينظر مشكل اعراب القران لمكي القيسي ٩٣٤

[4] البيضاوي ٤ / ٢٥٥

يرفع العمل الصالح، وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ (غافر ٤٠) وثانيهما الرافع هو الله تعالى[١] .

ومن أمثلة التوسع في المعنى أيضا قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر ٨) فذا يحتمل أكثر من دلالة، فقد يحتمل أن يكون ضمير فاعل (يشاء) يعود الى الله أي يضل من يشاء الله إضلاله ويهدي من يشاء الله هدايته ويحتمل أن يكون ضمير فاعل (يشاء) يعود الى البشر المكلفين فيكون المعنى يضل الله من يشاء الضلالة ويهدي من يشاء الهداية، أي أن من أراد الضلالة يبقيه الله على ضلالة ومن أراد الهدايه ييسر له الهداية[٢] .

وقد يتنوع مرجع الضمير بحسب تنوع الخطاب، فقد يأتي الخطاب الواحد بلفظ الجمع، أو خطاب الاثنين بلفظ الواحد، أو خطاب الجميع بعد الواحد، وغير ذلك من وجوه المخاطبات . فمن أمثلة ذلك خطاب الواحد بلفظ الجميع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾الى قوله تعالى :﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ (المؤمنون ٥١ – ٥٤) فهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده، إذ لا نبي معه قبله ولا بعده[٣] .

قال الطبري : يقول تعالى ذكره وقلنا لعيسى يا أيها الرسل كلوا من الحلال الذي طيبه الله لكم دون الحرام، تقول في الكلام للرجل الواحد: أيها القوم كفوا عنا أذاكم، وكما قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ (آل عمران ١٧٣) وهو رجل واحد هو نعيم ابن مسعود[٤].

---

[١] الرازي ٢٦ / ٩

[٢] الجملة العربية والمعنى ٧٥

[٣] البرهان ٢ / ١٤٠

[٤] الطبري ٢٨ / ٣٢

وقال القرطبي : ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا، أي كلوا من الحلال كما تقول لتاجر: يا تجار ينبغي أن تجتنبوا الربا . فأنت تخاطبه بالمعنى . وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه، فلم يخاطبوا قط مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما خوطب كل واحد في عصره(١).

وذهب الرازي الى أن ظاهر قوله :(يا أيها الرسل) خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة مختلفة، فيمكن توجيه هذا الخطاب على أن المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع أن أمرا نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيقا بأن يؤخذ به ويعمل عليه(٢). وقيل النداء له ولفظ الجمع للتعظيم (٣).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ ﴾(هود ١٤) والمخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم لقوله:﴿ قُلْ فَأْتُواْ ﴾ (هود ١٣) (٤). قال الطبري : قل يا محمد لهؤلاء المشركين فإن لم يستجب لكم من تدعون من دون الله الى أن يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات، ولم تطيقوا أنتم وهم أن تأتوا بذلك، فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أنزل من السماء على محمد صلى الله عليه وسلم بعلم الله وإذنه، وأن محمدا لم يفتره ولا يقدر أن يفتريه(٥) . وقد قيل إن قوله: (فأن لم يستجيبوا لكم) خطاب من الله لنبيه كأنه

---

(١) القرطبي ١٢ / ٨٦

(٢) الرازي ٢٣ / ١٠٥

(٣) البيضاوي ٤ / ٨٩

(٤) البرهان ٢ / ١٤٠

(٥) الطبري ١٢ / ١٥

قيل فأن لم يستجب لك هؤلاء الكفار يا محمد فاعلموا أيها المشركون إنما انزل بعلم الله وذلك تأويل بعيد(١) .

وقال القرطبي : وقال: (قل فأتوا) وبعده: (فأن لم يستجيبوا لكم) ولم يقل (لك) فقيل هو على تحويل المخاطبة من الإفراد الى الجمع تعظيما وتفخيما، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل الضمير في (لكم) وفي (فاعلموا) للجمع، أي فليعلم الجميع إنما أنزل بعلم الله . وقيل الضمير في (لكم) وفي (فاعلموا) للمشركين والمعنى فإن لم يستجب لكم من تدعونه الى المعاونة ولا تهيأت لكم المعارضة فاعلموا إنما أنزل بعلم الله . وقيل الضمير في (لكم) للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين وفي (فاعلموا) للمشركين(٢).

وقال البيضاوي : (فإن لم يستجيبوا لكم) بإتيان ما دعوتم اليه، وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم أو لأن المؤمنين كانوا أيضا يتحدونهم، وكان أمر الرسول صلى الله عليه وسلم متناولا لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر الإ ما خصه الدليل، وللتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه، ولذلك رتب عليه قوله: (فاعلموا انما أنزل بعلم الله) ملتبسا بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه(٣) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴾(المؤمنون ٩٩) أي ارجعني وأنما خاطب الواحد المعظم بذلك(٤).

قال الطبري : وقيل: (رب ارجعون) فابتدأ الكلام بخطاب الله تعالى ثم قيل: (ارجعون) فصار الى خطاب الجماعة والله تعالى ذكره واحد لأن

---

(١) الطبري ١٢ / ١٥

(٢) القرطبي ٩ / ١١

(٣) البيضاوي ٣ / ١٣٠

(٤) البرهان ٢ / ١٤١

مسألة القوم الرد الى الدنيا إنما كانت منهم للملائكة الذين يقبضون روحهم، وإنما ابتدئ الكلام بخطاب الله تعالى لأنهم استغاثوا به ثم رجعوا الى مسألة الملائكة الرجوع والرد الى الدنيا، وكان بعض نحويي الكوفة يقول قيل ذلك لأنه مما جرى على وصف الله نفسه من قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ (مريم ٩) في غير مكان من القرآن فجرى هذا على ذاك⁽¹⁾ .

وذهب القرطبي الى سبب قوله تعالى: (ارجعون) الى أقوال :

١) قال: (ارجعون) ولم يقل: (ارجعني) جاء على تعظيم الذكر للمخاطب

٢) وقيل: استغاثوا بالله عز وجل أولا فقال قائلهم: (رب) ثم رجع الى مخاطبة الملائكة فقال: ارجعون الى الدنيا .

٣) وقيل: إن معنى (ارجعون) على جهة التكرير أي ارجعني ارجعني ارجعني كما في قوله تعالى: (ألقيا في جهنم) (ق ٢٤) معناه ألق ألق⁽²⁾ وكما قيل في (قفا) و (اطرقا)⁽³⁾.

وقد يكون خطاب الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ (ق ٢٤) والمراد مالك خازن النار⁽⁴⁾.

قال الطبري : قال تعالى (ألقيا) فأخرج الأمر للقرين وهو بلفظ واحد مخرج خطاب الاثنين، وفي ذلك وجهان من التأويل أحدهما أن يكون القرين بمعنى الاثنين كالرسول، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع فرد قوله: (ألقيا في جهنم) الى المعنى . والثاني أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به

---

[1] الطبري ١٨ / ٦٨

[2] القرطبي ١٢ / ٩٩ – ١٠٠

[3] البيضاوي ٤ / ٩٥

[4] البرهان ٢ / ١٤٣

الاثنين، فتقول للرجل: ويلك ارحلاها وازجراها، والشعراء تقول: يا صاحبيَ ويا خليليَ[١].

وقال القرطبي : قال الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين، فتقول: ارحلاها وازجراها، وخذاه واطلقاه للواحد وقال امرؤ القيس: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، وقال المازني: (ألقيا) ألق ألق، وقال المبرد :هي تثنية على التوكيد، ويجوز أن يكون (ألقيا) تثنيته على خطاب الحقيقة في خطاب الملكين[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (المائده ١١٦) وإنما المتخذ إلها عيسى دون مريم[٣] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف ٣١) أي من أحدى القريتين كقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن ٢٢) أي من أحدهما والقريتان هما مكة والطائف والرجلان هما الوليد بن المغيرة في مكة و عروة ابن مسعود الثقفي في الطائف[٤] .

وقد يأتي الخطاب على عكس ذلك وهو خطاب الاثنين بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه ١١٧) ولم يقل: فتشقيا وقد قال: (فلا يخرجنكما) لأن ابتداء الخطاب من الله كان لآدم عليه السلام، فكان في إعلامه العقوبة على معصيته اياها فيما نهاه عنه من أكل الشجرة الكفاية من ذكر المرأة إذ كان معلوما أن حكمها في ذلك حكمه كما قال: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ

---

[١] الطبري ٢٦ / ٢١٢ – ٢١٣

[٢] القرطبي ١٧ / ١٢ – ١٣

[٣] البرهان ٣ / ٤

[٤] القرطبي ١٦ / ٥٦

﴿ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (ق ١٧) اجتزئ بمعرفة السامعين معناه من ذكر فعل صاحبه(١).

وقال القرطبي : فادم عليه السلام هو المخاطب وهو المقصود وأيضا لما كان الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص ...وإنما خصه بذكر الشقاء ليعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج(٢).

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ ﴾(البقرة ٣٧) ولم يقل: (عليهما) اكتفاء بالخبر عدول أحدهما بالدلالة عليه(٣) .

قال القرطبي : قيل: (عليه) ولم يقل: (عليهما) وحواء مشاركة له في الذنب باجماع فالجواب :

١ - إن آدم عليه السلام لما خوطب في أول القصة في قوله: (أسكن) خصه بالذكر في التلقي فلذلك كملت القصة بذكره وحده .

٢ - وايضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها ولذلك لم يذكرها بالمعصية في قوله: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (طه ١٢١) .

٣ - وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر(٤) .

وقد يأتي خطاب الجمع بعد الواحد كقوله تعالى:﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس ٨٧) فثنى في الأول ثم جمع ثم أفرد لأنه خوطب أولا موسى وهارون لأنهما المتبوعان، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما

---

(١) الطبري ٢٧٥/١٦-٢٧٦

(٢) القرطبي ١٦٨/١١

(٣) البرهان ١٤٤/٢

(٤) القرطبي ٢٢٢/١

باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنه واجب عليهم، ثم خص موسى بالبشارة تعظيما له(١).

وقد أثنى ابن القيم على أسلوب هذه الآية فقال : هو من أحسن النظم وأبدعه، فانه ثنى أولا، إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، واذا تبوءا البيوت لقومهما فهم لهما تبع . ثم جمع الضمير فقال: (وأقيموا الصلاة) لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحد في قوله: (وبشر المؤمنين) لأن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردؤه ووزيره، وكما كان موسى الأصل في الرسالة فهو الأصل بالبشارة، وأيضا إن موسى وأخاه أرسلا برسالة واحدة وكانا رسولا واحداً كقوله تعالى: ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ (طه ٤٧) فهذا الرسول هو الذي قيل له: (وبشر المؤنين)(٢) .

وقد يكون لموضوع استبدال الضمير بالظاهر تعلق بموضوع عود الضمير فقد يستبدل الضمير بالظاهر دفعاً للالتباس الحاصل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ (الفتح ٦) فقد كرر السوء لأن لو قال: (عليهم دائرته) لالتبس بان يكون الضمير عائدا الى الله تعالى(٣).

ومثاله ايضاً مما قد يقع فيه الالتباس بسبب الضمير قوله تعالى: ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (الاسراء ٧٨) فلو قال (انه) لأوهم عود الضمير الى الفجر(٤) .

---

(١) البرهان ٢/١٤٥

(٢) التفسير القيم لابن قيم الجوزية ٣٠٩

(٣) البرهان ٢/٢٩٢

(٤) البرهان ٢/٢٩٣

وقد يقع الظاهر موقع الضمير بسبب طول الكلام لأنه متى طال الكلام حسن إيقاع الظاهر موضع المضمر كي لا يبقى الذهن مشتتاً بسبب ما يعود عليه الضمير فيفوته ما شرع فيه كما اذا كان ذلك في ابتداء آية اخرى كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (البقرة ١٤٣) وقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾(البقرة ١٤٠)⁽¹⁾.

وقد يستبدل الضمير بالظاهر لغرض الخصوص كقوله تعالى : ﴿ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ (الاحزاب ٥٠) ولم يقل (لك) لأنه لو أتى بالضمير لأخذ جوازه لغيره كما في قوله تعالى :(وبنات عمك) (الاحزاب ٥٠) فعدل عنه الى الظاهر للتنبيه على الخصوصية وأنه ليس لغيره ذلك⁽²⁾ .

وقد يأتي بالظاهر للتوصل الى الوصف كقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (الاعراف ١٥٨) بعد قوله في صدر الآية: ﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف ١٥٨) ولم يقل: فأمنوا بالله وبي ليتمكن من إجراء الصفات التي ذكرها من النبي الأمي الذي يؤمن بالله، فإنه لو قال: (وبي) لم يتمكن من ذلك لأن الضمير لايوصف، ليعلم أن الذي وجب الإيمان له والاتباع له هو من وصف بهذه الصفات كائناً من كان، أنا أو غيري إظهاراً للصفة، وبعداً من التعصب لنفسه⁽³⁾.

ولموضوع عود الضمير تعلق بالأحكام الفقهية وفهم المراد منها ومثال ذلك قوله تعالى :﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة ٧٩) فقد يترتب على الخلاف في مرجع الضمير خلاف في الأحكام الفقهية تبعا لذلك فقد اختلف في معنى (لايمسه) هل هو حقيقة في المس بالجارحة أم معنى وكذلك

⁽¹⁾ البرهان ٢/٢٩٩

⁽²⁾ البرهان ٢/٢٩٦

⁽³⁾ البرهان ٢/٢٩٤

اختلف في (المطهرون) من هم . وقد رجح ابن القيم أن المراد به الصحف التي بايدي الملائكة لوجوه عديدة وهي أدلة قوية دامغة، وهذا هو شأن الامام ابن القيم رحمه الله في كل ما يستدل به يأتي بالادلة ليعزز بها كلامه، وهو لايكتفي بالدليل الواحد أو الدليلين وإنما يذكر أدلة كثيرة منطقية ومقنعة، والأدلة التي قال بها في هذه الآية نذكر منها :

١- إنه وصفه بأنه مكنون، والمكنون المستور من العيون، وهذا إنما هو بالصحف التي بأيدي الملائكة .

٢- ومنها أنه قال: (﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ وهم الملائكة ولو أراد المؤمنين لقال: (المتطهرون) ،فالملائكة مطهرون والمؤمنون المتوضئون متطهرون .

٣- ومنها إن هذا إخبار، ولو كان نهيا لقال: (لايمسسه) بالجزم، والأصل بالخبر أن يكون خبراً صورة ومعنى

٤- ومنها أن الآية مكية في سورة مكية تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات الصانع والرد على الكفار، وهذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي وهو مس المحدث المصحف(١) .

---

(١) التفسير القيم ٤٨٣/٤٨٢

الخاتمة

يتلخص من البحث النقاط الآتية :

١) أسلوب القرآن معجز، لذلك احتمل كثيراً من المعاني وكثيراً من الوجوه، ومن ذلك ايضا صلاحية الضمير لأن يعود لأشياء متنوعة سبقته، وقع ذلك في القرآن كثيراً جداً .

٢) ليس كل المفسرين سواء بالتنبيه على عود الضمير، ومن أبرز الذين اهتموا بهذا الجانب أبو حيان في البحر المحيط، ولذلك كان هذا الكتاب من أهم مراجع الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة في موسوعته (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) .

٣) يعود الضمير الى الأقرب ويجوز مع القرينة أن يعود ألى الأبعد .

٤) عود الضمير على المحدث عنه اولى من عوده على الاقرب .

٥) عود الضمير الى المضاف الذي هو أحد جزئي الاسناد أولى .

٦) جاء في القرآن كثيراً من عود الضمير الى المصدر الذي يدل عليه الفعل أو الوصف .

٧) في آيات كثيرة عاد الضمير الى غير مذكور في الكلام لدلالة المعنى عليه.

٨) جرى الضمير مجرى اسم الاشارة، فكان مفرداً وعاد الى مثنى أو متعدد في آيات كثيرة .

٩) قد يعود الضمير على اللفظ وقد يعود على المعنى بحسب تأويله تذكيراً وتأنيثاً .

١٠) جمع التكسير لما لايعقل فرق فيه بين قليله وكثيره، فالأفصح في قليله أن يجمع الضمير، والأفصح في كثيره أن يفرد، ويجوز العكس .

١١) عاد ضمير الجمع على المثنى في القرآن وهذا يرجح رأي من يقول أن أقل الجمع اثنان، وقد يعود ضمير المثنى على الجمع ايضاً .

١٢) قد يراد من الجمع الواحد، وقد يراد من المفرد الجمع، وقد يراد من ضمير المثنى الواحد .

١٣) موضوع عود الضمير له تعلق بموضوعات أخرى كموضوع تنوع الخطاب القرآني، والتوسع في المعنى، وكذلك له تعلق بالأحكام الفقهية .

١٤) أهم وسيلة لفهم وتحديد موضع مرجع الضمير هو معرفة السياق الذي يرد فيه الضمير، ولايمكن فهم أي نص فهماً سليماً الا من خلال معرفة السياق.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

١) الإتقان في علوم القران – جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم – دار الكتب العلميه، الطبعة الثانية ٢٠٠٧ م .

٢) البرهان في علوم القران – بدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ) دار الكتب العلميهة، الطبعه الأولى ٢٠٠٧ م

٣) البيان في غريب إعراب القران – أبو البركات ابن الأنباري (٣٠٨ هـ) – تحقيق الدكتور طه عبد الحميد

٤) التبيان في إعراب القران – أبو البقاء العكبري (٦١٦ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي

٥) التعبير القراني – الدكتور فاضل السامرائي – دار عمان، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦ م

٦) تفسيرأنوار التنزيل وأسرار التأويل – عبد الله بن عمر البيضاوي (٦٩١ هـ) إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م

٧) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ) دار الفكر – طبعة بعناية عرفان العشا حسونه ومراجعة صدقي محمد جميل

٨) تفسير جامع البيان – ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ) دار الفكر – قدم له الشيخ خليل الميس ١٩٩٩ م .

٩) تفسير الجامع لأحكام القران – محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١ هـ) تحقيق سالم مصطفى البدري – دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م

١٠) تفسير القرآن العظيم – إسماعيل ابن كثير (٧٧٤ هـ) اعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

١١) تفسير الكشاف – محمد ابن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين – دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م

١٢) تفسير مفاتيح الغيب – فخر الدين الرازي (٦٠٤ هـ) قدم له الشيخ خليل محيي الدين الميس، دار الفكر ١٩٩٥ م .

١٣) تفسير النكت والعيون – علي بن محمد الماوردي (٤٥٠ هـ) راجعه وعلق عليه عبد المقصود بن عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية)

١٤) جامع الدروس العربية – مصطفى الغلاييني (١٩٤٤ م) ضبطه وخرج آياته وشواهده الشعريه الدكتور عبد المنعم خليل ابراهيم – دار الكتب العلمية، الطبعة السابعة ٢٠٠٦ م

١٥) الجملة العربية والمعنى – الدكتور فاضل السامرائي – دار الفكر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م .

١٦) دراسات لأسلوب القرآن الكريم – محمد عبد الخالق عضيمه – دار الحديث ٢٠٠٤ م .

١٧) مشكل إعراب القرآن – مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧ هـ) تحقيق محمد عثمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩ م مكتبة الثقافة الدينية .

١٨) معاني النحو – الدكتور فاضل السامرائي – دار الفكر – الطبعة الثانية ٢٠٠٢ م .

١٩) المعجم المفصل في المذكر والمؤنث – اعداد الدكتور أميل يعقوب – دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ٢٠٠١ م .

٢٠) النحو الوافي – عباس حسن .

* * *